مراجعة كتاب: مارتن براك ويان لوتين فان زاندن. رواد الرأسمالية: هولندا ، 1000-1800.

برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 2023.
المراجع: آن إي سي مكّانتس*
ترجمة: مصباح كمال**

Maarten Prak and Jan Luiten van Zanden. Pioneers of Capitalism: The Netherlands, 1000-1800. Princeton: Princeton University Press, 2023. ix + 261 pp. $39.95 (hardback), ISBN 978-0691229874.

Reviewed for EH.Net by Anne EC McCants, Massachusetts Institute of Technology.

Published by EH.Net (July 2023).

يمكن قراءة النص الإنجليزي باستخدام هذا الرابط:
https://eh.net/book_reviews/pioneers-of-capitalism-the-netherlands-1000-1800/

هذا كتاب ثمين عن التاريخ المبكر والطويل لمكان صغير نسبيًا كان لعواقبه على الاقتصاد العالمي وتفكيرنا حول كيفية عمل الاقتصادات تأثيرًا أكبر بكثير مما قد توحي به آثار هذا التاريخ. فالعنوان وحده يحمل الكثير ليخبر القارئ المرتقب بما يضمه الكتاب. إنه يوجّه انتباهنا إلى أن ظهور "الرأسمالية" كان في هولندا، وليس إنجلترا، موطن الثورة الصناعية الأولى. وإذا لم يكن ذلك كافيًا، فإن الكتاب يبدأ بالسرد في عام 1000 عندما كانت الأراضي المنخفضة Netherlands [هولندا]، وخاصة مناطقها الشمالية، تتألف من عدد قليل من قرى الصيد الصغيرة وممتلكات الفلاحين نصف المغمورة بالمياه. أخيرًا، فيما قد يكون أكثر الادعاءات جرأة، فإن الكتاب يتوقف في نهايته عند العام 1800، وهو الزمن الذي لم يكن فيه مصطلح الرأسمالية قد ظهر لأول مرة في الطباعة، وعندما كان التعريف الواضح لأسلافها [من المصطلحات]، "رأس المال" و "الرأسمالية"، يصعب على التحديد (بروديل، 237). وبالتالي، بالنسبة لأي شخص متعمق في الروايات القياسية للتاريخ الاقتصادي، فإن استفزازات العنوان هي دعوة لمزيد من القراءة.

أوراق في التاريخ الاقتصادي

لحسن الحظ، فإن النص لا يخيب التوقعات. بعد أن قرأت الكتاب أولاً في نسخته النهائية ما قبل الطبع، وقرأته الآن مرة أخرى لكتابة هذا العرض، أقدّمُ تقييمًا شديد الحماس لمزايا النقاش وأناقة النثر. إنه نموذج الكتاب النادر الذي يتحسن عند القراءة الثانية في غضون عام فقط. لذا اسمحوا لي أن أشرح لماذا أعتقد أن كل شخص مهتم بالتنمية الاقتصادية، أو قوة المجتمع المدني، أو "تاريخ الرأسمالية"، أو آفاقنا لمستقبل مزدهر وأكثر إنصافًا، يجب عليه أن يقرأ هذا الكتاب.

مثل كثير من الناس، يهتم المؤلفان بما يسميانه بسؤال "كيف" و "لماذا" ظهر اقتصاد السوق الرأسمالي (ص 10). ولكن على عكس الكثيرين الذين يأسون مما يعتقدون أنه المنطق الحديدي لما تجلبه الرأسمالية من دمار(عدم المساواة المتزايدة باستمرار أو تدمير البيئة، على سبيل المثل لا الحصر)، يترك براك وفان زاندن الباب مفتوحًا أمام إمكانية المجتمع المدني للقيام بدور إيجابي، سواء قبل تطور الرأسمالية، أو في الحفاظ على سلطتها حتى بعد أن تأخذ معاملات السوق الدور المهيمن في تموين المجتمع. وبعيدًا عن التعمية على الخراب الفعلي للرأسمالية الهولندية في الخارج – أو هل ينبغي للمرء أن يقول الكولونيالية، تاركًا الباب مفتوحًا أمام احتمال أنهما [الرأسمالية الكولونيالية] ليسا بالضرورة نفس الشيء؟ – يوضح التسلسل الزمني الذي يعرضه المؤلفان أن الرأسمالية الهولندية كانت قادرة على الازدهار وإثراء المجتمع الهولندي قبل إنشاء إمبراطورية استعمارية. وبما أن الدليل على التوقيت التاريخي هو عنصر أساسي في حجتهما، اسمحوا لي أن أبدأ بمناقشة التسلسل الزمني الخاص بهما.

يواجه المؤرخون دائمًا مشكلة تحديد نقطة البدء في تحرياتهم، لأن هناك دائمًا شيء ما حدث قبل أي نقطة بداية يختارها المرء. يكاد يكون من المؤكد أن هذا الشيء سيكون له صلة بالسرد القادم. ومع ذلك، في حوالي عام 1000، كما أشار المؤلفان بشكل صحيح، كان هناك نشاط بشري ضئيل بشكل ملحوظ فيما سيصبح هولندا. لقد كانت "بلدًا فارغًا"، ليس بالمعنى الحرفي للكلمة بالطبع، ولكنه قريب بما يكفي (ص 30). لذلك يبدأ عملهما في البداية، أو أقرب ما يكون منها وما يمكن للكتابة التاريخية تحقيقه. هذا مهم، ليس فقط لأنه يسمح لهما بالكتابة عن الأراضي التاريخية غير المعروفة خارج الدائرة الضيقة للمختصين بتاريخ العصور الوسطى للأراضي المنخفضة، ولكنه يمنحهم أيضًا منصة مرنة بشكل غير عادي لبناء إطارهم التوضيحي.

ما الذي كان حينها مميزًا جدًا، أو ربما سيكون مميزًا، بشأن قرى الصيد الصغيرة المعزولة والمزارعين الفلاحين الذين يعملون في أرض نصفه مغمور بالمياه؟ شيئين يبرزان أكثر في روايتهما. أولاً، تحت وطأة الضرورة وتوفر الفرصة، فإن الأشخاص الذين عاشوا على هذه الأراضي الهامشية، المرتبطين جيدًا عن طريق النقل

المائي ولكنهم غير مناسبين تمامًا لزراعة الحبوب الأساسية، كانوا مستقلين بشدة عن معايير المجتمع في العصور الوسطى؛ في نفس الوقت كانوا يعتمدون بشدة على التجارة مع الغرباء والتعاون على إدارة المياه التي كانت ضرورية دائمًا. إن التوازن الناتج الذي تحقق بين قطبي الاستقلالية والتبادلية autonomy and mutuality، يتطابق مع السمة الرئيسية الثانية التي طرحها براك وفان زاندن، وهي أن ما يجادلان به كان مجرد مزيج تاريخي صحيح من الإقطاع/وليس الإقطاع. إن بيانهم لهذه الحجة يستحق الاقتباس مباشرة: "من باب التلخيص، يبدو أن الرأسمالية قد نشأت في مجتمع يتسم بالمساواة نسبيًا، مع مجتمع مدني قوي ومتطور باستمرار يتميز بالتوازن بين التأثيرات من أسفل إلى أعلى والمؤسسات من أعلى إلى أسفل" بحيث "أصبح المحرك الرأسمالي أكثر ديناميكية في المنطقة الحدودية بين الإقطاع والحرية". (ص 89).

هناك شيء مُرضٍ للغاية بشأن الحجج التي تستدعي الوسيط الفاضل ـ التوازن الأرسطي، كما صاغته جانا كومانز Janna Coomans في ورشة عمل حديثة حول الكتاب (كان يرد في بالي مثال غولديلوكس Goldilocks أثناء قراءتي).[1] لكن هذه الراحة، بالطبع، ليست كافية لضمان صحة مثل هذه الحجج. كم هي مقنعة حجتهما، سواء بالنسبة لقصة الأصل الفريدة من العصور الوسطى، أو التوازن الذي تم تحقيقه بين اقتصاد السوق والمجتمع المدني؟ كون أن الأرض التي ستصبح في النهاية هولندا كان لها ماضٍ من العصور الوسطى على عكس جيرانها يبدو أمرًا لا جدال فيه؛ وبالمثل، فقد تميزت بدرجة غير عادية من التسويق التجاري commercialization منذ وقت مبكر جدًا. كما أن المؤلفين مقنعان أيضًا بأن المجتمع الهولندي كان أكثر مساواة (على الرغم من أنه بعيد عن ذلك تمامًا بالطبع) عبر مقاييس متعددة من أولئك المجتمعات المحيطة بها، وأن الهولنديين كانوا قادرين على حماية حرياتهم في المنزل حتى عندما كانوا يواجهون إغراءات (إذا كانت هذه هي الكلمة الصحيحة) الممارسات الكولونيالية غير المتكافئة في الخارج، وعلى الأخص العبودية وتعدد الزوجات والتسلسل الهرمي العنصري المقيّد [للحراك الاجتماعي]. إن قيام العديد من الأفراد والمؤسسات الهولندية التي تبنّت ونقلت هذه الممارسات وروجت لها بسهولة في الخارج هي بمثابة تذكير في قول براك وفان زاندن بأن الهولنديين لا يتمتعون بمكانة أخلاقية خاصة. ومع ذلك، فإن حجتهما حول رأسمالية مبكرة [في هولندا] تعمل جنبًا إلى جنب مع المجتمع المدني لتعزيز نمو طويل ومستدام إلى حد كبير للازدهار

[1] للتعريف بهذه الحكاية الخرافية راجع الموسوعة الحرة:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%BA%D9%88%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%84%D9%88%D9%83%D8%B3_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%A8%D8%A8%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%84%D8%A7%D8%AB%D8%A9

للهولنديين في الداخل، لا تعتمد أيضًا، أو لا تعتمد كثيرًا على غنائم الإمبراطورية. في الواقع، كما أشارا بالبيانات والحجج، فإن فترة النمو الاقتصادي الأسرع في الجمهورية الهولندية تسبق فترة التوسع الخارجي الهولندي.

يبدو من العدل أن نستنتج أنه بالنسبة لبراك وفان زاندن، فإن أصول المجتمع الهولندي في العصور الوسطى لها تأثير أكبر في تاريخ ظهور الرأسمالية مقارنة بالرذائل الحديثة المبكرة لشركة الهند الشرقية والشركات الأخرى. ضع في اعتبارك فهمهما للتناقض بين ديناميكية الاقتصاد والمجتمع في الداخل مقابل الخارج. فهما يكتبان: "إن مقارنتنا للتغييرات المؤسسية التي حفزها الشكل السريع التطور للرأسمالية التي شاركت فيها الجمهورية حوالي العام 1600 يكشف، قبل كل شيء، أن" تجاوزات "الرأسمالية التي شهدتها الجمهورية قد تم كبحها، وأن السعي وراء الارباح في المدى القصير تم تقييده من خلال الحواجز المؤسسية، التي تهدف إلى ضمان التفكير طويل المدى– مع آثار إيجابية بشكل عام على الاقتصاد والمجتمع. لم تكن مثل هذه التصحيحات والحواجز قد ظهرت بشكل بارز في توسعها الخارجي: لم يمنع أحد استخدام العبيد، ولم يتم إعاقة إنشاء 'المؤسسات الاستخراجية' extractive institutions'". (143).

إن الرأسمالية المفهومة بهذه الطريقة، على أنها سابقة بالتأكيد ومنفصلة بشكل معقول عن الكولونيالية، لديها الكثير لتقدمه في طريق الازدهار والرفاهية، ولكن فقط طالما يمكن كبح إمكاناتها للتجاوزات. في حالة عدم وجود ما يحدّ التجاوزات، يتم إعاقة النمو، وتصبح الرفاهية معرضة للخطر. ضمن هذا التأطير، لا يوجد شيء واحد مثل الرأسمالية الذي يتجلى كما هو نفسه في كل وقت أو مكان. بدلاً من ذلك، هناك أنواع متعددة من "الرأسمالية"، وما يجعل أيًا منها إما جيدًا أو سيئًا (بصراحة) هو طبيعة معايير المجتمع التي تندمج فيها. بالنسبة لبراك وفان زاندن، هذه رسالة أمل. ويوضح المثال الهولندي أنه من الممكن أن تتعايش الرأسمالية مع مجتمع مدني مفتوح (نسبيًا). في الواقع، قد يكون هذا الأخير مجرد شرط مسبق للتحقيق الكامل للمجتمع المتمحور حول السوق. المطلوب هو إيجاد التوازن بين الاستقلالية والتبادلية، أو حسب مصطلح المؤلفين، التوازن بين الإقطاع والحرية. للأسف، لو نظرنا إلى العالم، فإن هذا التوازن قد يكون بعيد المنال في الممارسة أكثر مما هو عليه في القصص الخيالية. ■

المراجع

Braudel, Fernand. *The Wheels of Commerce: Civilization & Capitalism, 15th-18th Century*. Vol. 2. New York: Harper and Row, 1982.

Copyright (c) 2022 by EH.Net. All rights reserved

(*) آن إي سي مكّانتس، أستاذة التاريخ، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.
Anne EC McCants is the Ann F. Friedlaender Professor of History and Director of the Concourse Program at the Massachusetts Institute of Technology. Among her recent publications is "Economic History and the Historians" (*Journal of Interdisciplinary History*, 2020).

(**) مصباح كمال، كاتب في قضايا التأمين

تمت الترجمة بتاريخ 31 تموز/يوليو 2023

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر 1 آب 2023.
http://iraqieconomists.net/ar/